# التاريخ المركّب

واذ نحن عائدون الى البيت قال فيليب : لقد اصاب الشيخ. فان كل هذه النظريات في التاريخ لا قيمة لها اذا أخذت فرادى. وانما تُعقل مجتمعة. لقد تمت من التحليل، وتُقدّتْ الى التركيب

دورانت : ان أعقل ما قيل الليلة هو ما اورده ڤولتير . وهو : يجب ان يكتب التاريخ باقلام الفلاسفة ، لانهم يرون الاشياء في مجموعها . هذه هي خلاصة القول

اريل : ولكنك نسيت سعة ميدان التاريخ فليس ثمة أحد يستطيع ان يعيش ليراه كلّهُ ولو كان من الباثين

دورانت : هذا صحيح . فيلزمنا اخصائيون ، عدُّون الفلاسفة بالمادة التاريخية ، كما عدوهم بالمادة العلمية. وفي كلا الحالين يفضي بنا الامر الى الاضطراب الهدّام، اذا لم تضمّ الوحدة أشتات المعارف . ويجب ان تكون الفلسفة للتاريخ ما تكونه للعلم ، اي تنظيم المعارف وتنسيقها

سرنا مسافة ساكرى بحسرة الآلهة والنجوم . واخيراً قطع فيليب سكوتنا بقوله : —

اتدرون ان في هذا البحث الماعاً الى النسق الجديد الذي يجب ان يكتب به التاريخ . فقد جرت العادة على انهُ اذا كتب الانسان تاريخ اليونان مثلاً فانهُ يعنى بتاريخ حياتهم السياسية — او على الاكثر بتاريخ حياتهم الاقتصادية والسياسية — ثم يكتب مؤرخ آخر حياة اليونان الصناعية والتجارية ناظراً فيها نظرة اقتصادية « كزمرن » وينفحنا غيره بتاريخ الديانة اليونانية وآخر بتاريخ الفلسفة اليونانية ، او الآداب اليونانية . وينتظر منا ، نحن الطلاب، ان نجمع هذه الشذرات معاً ، لنؤلف من مجموعها صورة تامّة للحياة اليونانية المركبة . فعلينا أن نعمل ما كاد يحسب عملاً متعذراً ، حتى على مؤرخ كبير. ففي هذه التواريخ تقسّم حياة الامة الى قطع وتفصل كل قطعة منها عن اخواتها فصلاً مصطنعاً . فندرسها درساً مدققاً باعتبار اقسامها ، ملاحظين علاقاتها الزمنية ( اي تتابعها ) ، معرضين عن روابط التأثير المتبادل بينها ، تراعاً احياناً وتعاوناً احياناً اخرى . انها والله طريقة عجيبة لوصف الماضي !

اريل : هذا تاريخ ممزّق الاوصال

دورانت : ليس للفلاسفة جرأة في عصرنا هذا . فتراهم يختارون اعمالاً تافهة — فيبحثون مثلاً هل ما عناه افلاطون هو ( ب ) او ( ج )؟ وهل الشمس في قبة الفلك او في عقولنا

وهل البرتقالة صفراء في النسق او غير صفراء ؟ واظن انهم يخشون ان ينظروا في شؤون الكون منذ ما فرضت عليهم الكنيسة ما يفكرون به

فيلب : وعندي رأي آخر . وهو ان التاريخ كما يكتب الآن كثير الاقسام . فتأخذ انت فرعاً منهُ كالسياسة ، او الفلسفة ، او العلم . وتتأثر تطوُّرهُ ونموهُ مدى عهد طويل. ولندعُ ذلك تأريخاً ممزقاً ، كما قالت اريل . فلماذا لا نضيف الى ذلك ( وقد سلمنا بلزوم هذا الدرس الخاص ) نوعاً من التقسيم التاريخي ؟ فيختار الانسان قرناً واحداً ، او جيلاً واحداً ، فقط ، كعصر بركليس او عصر فولتير . ويتقيَّد به . ثم يشرع يكتب تاريخ كل احوال الامة في ذلك العصر من وجوهها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعلمية والفلسفية والدينية والادبية والخلقية والروائية والفنية ؟ ومن مصائبنا اننا متأثرون بفكرة النشوء تأثراً كبيراً . فنفكر في كل شيء كأنهُ تيار مستمرٌّ . فيه الحوادثُ تسبب الحوادث التابعة لها وتتصل بها . فنزعم ، مثلاً ، ان فلسفة افلاطون سليلة فلسفة سقراط ، وان فلسفة ارسطو نتاج فلسفة افلاطون ، وان فلسفة سبينوزا سببها عن فلسفة ديكارت . على ان هنالك نوعاً آخر من السببيَّة . فليست الحوادث نتيجة احوال سلفت فقط ، في ميدانها الخاص ، بل هي ايضاً نتيجة الاحوال المحيطة بها ، في ميادين اخرى . فقد تكون فلسفة افلاطون متأثرة بآراء سقراط اقلّ من تأثرها بالتقدُّم السياسي والاقتصادي في عصر افلاطون — اي بالاحاديث التي سمعها في السوق وفي الملاعب او بالانصاب التي شاهدها في الهياكل والساحات. وقد يكون ارسطو طاليس مقتبساً فكره عن اصدقائهِ المكدونيين اكثر من اقتباسهِ اياهُ عن اساتذه في الاكاديميا

اريل : حسن جدًّا يا فيلب لقد اجدت

فيلب : لا تهزأي بي يا اريل ، فاني اود ان ارى التاريخ يكتب بجملهِ ، اريد ان ارى جهود الرجال والنساء في العصر الواحد محبوكة معاً تؤلف وحدة وتبين ارتباط تلك الجهود بعضها ببعض ، وبوجوه تفاعلها المتبادل . اريد ان ارى الماضي ممثلاً كما هو — كتلة واحدة . خذ بي عصر نابليون ، وانظري كيف تتوقف احواله السياسية كل التوقف على احواله الاقتصادية وكيف حكم على مصير حروب نابليون بالذهب الانكليزي وكيف كان روشيلد كامناً وراء ولنقتن وكيف صوَّرت الآداب حوادث العصر الدينية والسياسية ، كما في كتابات شيلي وبيرون وشاتوبريان ، وكيف اتخذت الموسيقى الآن سمة بطولية وغرامية ، وكيف صوَّر « بتوفن » في ألحانهِ نزعات الثورة وعظمة نابليون تصويراً محسوساً . فقد كان العصر كله واحداً في فرنسا بل وفي كل اوربا غرب روسيا . فأنا اروم تاريخاً للملل العصر

الماضي مترابط الاقسام كما كانت في حينها

اريل : انك تطلب امراً عظيماً . وهذا متعذر

دورانت : قد يكون ذلك متعذراً . ولكن الا ترون انهُ قد يمكن درس كل موضوع في عصر واحد، كما يمكن درس موضوع واحد في كل العصور. ويجب ان تكون كتابة التاريخ لعصر فولتير ممكنة كما كتب جبون قيام الامبراطورية الرومانية وسقوطها او كما كتب «جيروت» تاريخ اليونان او كما كتب فولتير «ملخص في الاخلاق». وقد عمل سيمندز ، بعض ما تطلبهُ يا فيليب لما كتب سبع مجلدات في « تاريخ عصر الإحياء» Renaissance

فيليب : نعم وهو كتاب نفيس وانا اروم ان يؤرخ كل عصر على هذا النسق . واذا كان لنا تآليف من هذا الطراز ازداد فهمنا للتاريخ واصبحنا رجالاً اقرب الى الكمال . بالجويد وليوناردو وارسطو — آلهة النظر الشامل

اريل : ولماذا لا تكتب تاريخاً كهذا يا فيليب . النسق هو كل شيء. فاكتب اذا امكنك

فيليب : احب ان اكتب تاريخ القرن التاسع عشر على هذا الاسلوب حاصراً بحثي في اوربا لامكن من تحقيق بعض غرضي. وحتى هذا كثير في مدى حياة رجل واحد. قد يمكننا نحن الثلاثة انجازه معاً . افتساعدينا في ذلك يا اريل ؟ تأملي في ذلك القرن اية رواية هو ؟ انها في اربعة فصول . اولها : عصر نابليون . وثانيها : العصر الرومانتيكي . وثالثها : العصر الواقعي. والرابع : عصر النزعة الامبراطورية وما يتصل بها جميعاً من اعلام الموسيقيين والمصورين والكتاب والشعراء والنقاد والفلاسفة والعلماء والمستنبطين . ورجال السياسة والحرب . وما تنطوي عليه من تحوُّل في نظريات العلم ومذاهب الفلسفة والاجتماع وطرائق التعليم واساليب الحكم ووسائل المعيشة والصناعة : حبذا الحال لو يجمع كل ذلك معاً في صورة واحدة نابضة بالحياة — حياة اوربا اليقظة القلقة المتقدة في خلال القرن التاسع عشر

اريل : فلنقم بالعمل. انا اكتب ما يختص بالشخصيات النسائية فمتى نبتدىء ؟

فيليب : غداً نرى

اريل : ولكن ثمة امر واحد تركني غير راضية يتعلق برؤيتنا الاحياء هذه الليلة . فهم لم يقولوا لنا هل في التاريخ ارتقاء او هل نقدر ان نتكهن بمصير العمران في المستقبل

فيليب : لعلنا نراهم ثانية

بتصرُّف زهيد مصر حنا خباز